محمد قعدان*

الصهيونيّة والإمبراطورية – الجذور، التشكّل والهيمنة

تمهيد

سأحاول في هذهِ المقالة، تسليط الضوء على السياق الاجتماعي والمعرفي الذي تمت فيهِ العلاقة بين الصهيونية والإمبراطورية، وأثرُ هذهِ العلاقة على التحوّلات في مفهوم الصهيونيّة وممارساتها السياسيّة، منذُ القرن التاسع عشر حتى أوساط القرنِ العشرين. في البداية علينا تحديد ووضعِ أساسٍ نظريّ للمُشكلة اليهودية في السياق الأوروبي، ومُحاولة الإجابة عن السؤال– كيف نتجت المُشكلة اليهوديّة في أوروبا؟ من خلالِ النظر إلى القرون الاستعمارية (القرن الخامس عشر والسادس عشر) وأهميّتها في تشكيل التصنيفات العرقيّة والعُنصريّة للعالم، وثم نموّ الرأسمالية، وبالتالي تصنيفِ اليهود كعرقٍ واحد، ومُعاناتهِ من اضطهاد على أساساتٍ عُنصرية حديثة. ومن المعروف أنه في هذا السياق بدأت الحركة الصهيونيّة بالتشكّل، ولذلك سأحاول تأطير العلاقة التي بدأت بالتشابك في هذهِ الفترة التاريخيّة، بين الإمبراطوريّات الاستعمارية والصهيونية في ثلاثةِ محاور.

الجذور؛ سأحاول في هذا المحور تقديم العلاقات والتشابك الأول بين الصهيونية والإمبراطورية، من خلال مُناقشة منظورين في «هيستوغرافيا» الحركة الصهيونية؛ المنظور الأيديولوجي والمنظور التاريخي–السوسيولوجي، لكي نصل إلى فهم جذور العلاقات، من خلالِ تحديد بداياتِ الصهيونية. وهُنا أوضّح بأن منهجيّتي في فهمِ الجذور بين الصهيونية والإمبراطوريات الاستعمارية في غرب أوروبا، تعتمد على فرضيّة تقول إن تبلور المُنظمة الصهيونيّة كان أيضاً من خلالِ علاقتِها مع الإمبراطورية، منذُ بداية القرن التاسع عشر، وتبلورها في ظلّ المُنافسة البريطانية–الفرنسية

* طالب بكالوريوس في موضوعي السوسيولوجيا والأنثروبولوجيا وتاريخ الشرق الأوسط وشمال إفريقيا.

يرى غروسفوغل بأنهُ من خلال أربع حلقات زمنية منذُ القرن الخامس عشر، بدأ المُتخيّل الغربي القائم على التصنيفِ المعياري للعرقِ والإثنية بالتشكّل والنموّ من خلال هيراركيات؛ الحلقة الأولى كانت في عامِ ١٤٩٢، حين سيطرت مملكةِ قشتالة على شبه الجزيرة الإيبيرية بشكلٍ كامل تحت شعار «طهرانيّة الدم» والقصدُ بأن الغزو لمن يتبعونَ لأصولٍ غير مسيحية.

من جهةٍ، وألمانيا من جهة أخرى. ولذلك سيكون السؤال هنا: ما هو شكلُ العلاقات أو السياقات التي حفّزت الفكرة؛ إعادةِ اليهود إلى وطنٍ في فلسطين؟ وهذا يقودنا إلى المحور الثاني، التشكّل؛ أي كيفَ تشكّلت العلاقة بينَ الإمبراطورية (البريطانيّة) والصهيونيّة منذُ أواخر القرن التاسع عشر إلى بداية القرن العشرين، وما هي المُنطلقات السياسيّة، الاقتصاديّة والاجتماعيّة التي تأسست عليها هذهِ العلاقة؟ أما المحور الأخير فيتناول الهيمنة؛ وهي المرحلة التي ستنتج عنها الدولة الصهيونيّة، وتمّ فيها تثبيت العلاقات مع الإمبراطوريّات الاستعمارية، بريطانيا، وفرنسا وتتبعُهما الولايات المُتحدة.

مُقدمة: عن بداية المُشكلة اليهودية

«وبالنسبةِ للغرب، فإنه علينا إبراز مُفردة فرضت نفسها مؤخراً، تُسمى عندنا بالجُملة، البرجوازيّة؛ وهذهِ الأخيرة هي حاملة للسياق الرأسمالي، والمُكونة أو المُستعملة للهرم الاجتماعيّ (*hierarchy*) الذي سيُصبح العمود الفقري للرأسمالية».[١]

–برودیل فرنان

«ظهرت العنصرية المعادية للسامية في إسبانيا في القرن السادس عشر، عندما كان التمييز الديني القديم المعادي للسامية في العصور الوسطى متشابكا مع مُتخيّل عنصري حديث نتجَ عبرَ غزو الأميركيتين».[٢]

–رومان غروسفوغل

الهيراركيات الاجتماعيّة، هي العمود الفقريّ للرأسمالية، للمُجتمعاتِ في غرب أوروبا، للإمبراطورية في شكلِها الحديث. هذهِ المقولة ستُرافقنا في فهمِ بداياتِ المُشكلةِ اليهوديّة وتحفيز الصهيونية، عبر الحفرِ في آليّات الفصل وعزلةِ اليهود عن المُجتمعات الأوروبية الحديثة، ما سيجعلُها عرقا وإثنيّة واحدة يهودية وفقَ المُتخيّل العُنصري الأوروبي. وبذلكَ يتمّ تحديد هذهِ الجماعة العرقيّة بأنها أدنى من العرق الأبيض المسيحي. ستمنح هذهِ التصنيفات المعياريّة مُتشابكة مع نموّ رأس المال خلال القرن الخامس عشر والسادس عشر شرعيّة للتصنيفات العرقيّة، ولتقسيم العمل والوظائف على صعيد عالميّ[٣].

يرى بروديل بأن الرأسماليّة ليست من اختراع الدولة القومية، بل هي ترسبّات الحياة الاقطاعية منذُ القرون الوسطى، كونها بدأت في النموّ عبرَ الهيراركيات الحادّة والتقسيمات في الفترةِ الاقطاعية الأوروبية. تنتظم هذهِ التقسيمات من خلال ثرواتٍ مادية أيضاً، فإذاً هي مُرتبطة بالمُلكية وتراكم الثروات عند العائلات النبيلة، وهكذا نمت الرأسمالية عبر المراتب الاجتماعية (سياسية، عسكرية ومالية) ودرجاتها من الأسفل إلى الأعلى.

وظيفة هذهِ الهيراركيات، في الأساس، تحفيز تراكم الثروات، وعدم تبعثرها من جديد بينَ العامّة، وبذلك تشكّلت المُنطلقات الاقتصادية الرأسمالية في أوروبا عبر العائلات النبيلة في نظام المُدن–الدولة (villes-etats) في إيطاليا؛ البندقية، جنوى، فلورنسا. تجميع الأموال والثروات من خلالِ صناعةِ الهيراركيات السياسة، العسكرية والمالية. يذكر بروديل عن التبعثر المالي وعدم تثبيت الثروة وتراكمِها، الذي كانَ يحصل في الإمبراطورية العثمانية مثلاً أو الصين، من خلالِ آليّة new deal – العقد الجديد الذي يُتيح إمكانية توزيع السُلطة من خلالِ امتحان الجدارة. لذلك لم تتمكن العائلات من تشكيل ومُراكمةِ ثروات كما كانت العائلات في أوروبا[٤].

وقد كان وجود الهيراركيات على صعيد أنظمةِ المُدن–الدولة مُهما لتحفيزِ تراكم الثروة في الفترةِ الاقطاعية، ولكن ذلكَ وحده ليس كافياً لنموّ الرأسمالية، بل ثمّة حاجة إلى رأس مال أولي، وأيضا إلى اليد العاملة، الأمر الذي سيتحقق لاحقاً مع الحملات الاستعمارية ونهبِ ثرواتِ العالم، وستنمو الدول الأوروبية وتُصبح مركز العالم الاقتصادي، وبالضرورة سينتج عن ذلك دول الأطراف.[٥] ولذلك لن يتمّ الاكتفاء بصناعةِ هيراركيات على صعيدٍ محليّ أوروبي، بل على صعيدٍ عالمي، وستتبلور أشكال أخرى من

لم يكن الخطاب الاستعماري بعد يُناقش «إنسانيّة» هذهِ الجماعات، وكان الخطاب يفترضُ بأنهم بشرٌ ولكن الهويّة الدينية للذوات الاجتماعية (اليهودية والإسلامية) هي على خطأ ويجب إقصاؤهم على هذا الأساس. نرى هُنا جذور الهيراركيات الاجتماعية من خلال تصنيف الهويات الدينية، حتى الآن.

الهيراركيات، تجاه الآخر غير المسيحي، وغير الأوروبي.

الشكلُ الاجتماعي الذي سادَ أوروبا في أواخر الفترة الاقطاعية وبدايةِ العصر الجديد الرأسمالي، وأقصدُ بذلك الهيراركيات، هي أساسُ بحثنا في فهم المُشكلة اليهودية. ولنوضّح ذلك، يجبُ علينا النظرُ إلى العلاقات التي عزلت وأقصت اليهود، وهل كان ذلكَ ضمن مُتخيّل معرفي أوروبي حديث، وضمن مخطط الهيراركيات الحديثة؟

توجّهي إلى السؤال، سيكون من خلال الفصل والإدماج؛ سنفصل– الفترة التاريخية لعزلِ وإقصاء اليهود في القرونِ الوسطى، والعداء للساميّة آنذاك، لأنها تحتاج إلى دراسة خاصّة بها. وسندمج – عزل وإقصاء اليهود في ديناميكيّات المُجتمعات الأوروبية وخاصّة غرب أوروبا، وتطوّر نظام الرأسمالية–هيراركيات. من خلال ربط تطوّر هذا النظام مع عزل اليهود وإقصائهم منذُ القرن الخامس عشر في أوروبا، سنسلط الضوء على بدايات المُشكلةِ العرقيّة، والتصنيفات الاستعمارية للجماعات والأفراد، غير المسيحية–وغير الأوروبية. التي ستكون مسؤولة عن صعود أشكال جديدة من العُنصرية، وأيضاً أشكال جديدة للإبادة، وأشكال جديدة من التجارة والهيمنة على حركةِ وتراكم رأس المال. واليهود (وفقَ التصنيف العرقي الأوروبي)، لن يكونوا جزءا من المخيال الغربي الأبيض المسيحي، لذلك ستتمّ إبادتهم معرفيّا كعُنصر إنساني وثقافي وإبادةٍ ماديّة أيضاً كما سيحصل في القرون التالية، في القرن العشرين تحديداً.

يرى غروسفوغل بأنهُ من خلال أربع حلقات زمنية منذُ القرن الخامس عشر، بدأ المُتخيّل الغربي القائم على التصنيفِ المعياري للعرقِ والإثنية بالتشكّل والنموّ من خلال هيراركيات؛ الحلقة الأولى كانت في عام ١٤٩٢، حين سيطرت مملكةِ قشتالة على شبه الجزيرة الإيبيريةَ بشكلٍ كامل تحت شعار «طهرانيّة الدم» والقصدُ بأن الغزو لمن يتبعونَ لأصولٍ غير مسيحية. وما تبعَ هذا الحدث، من إبادةِ الإبستيميات اليهودية والإسلامية في الأندلس، وأيضاً بدايةِ نشوءِ خطاب (discourse)- الإقصاء على أساسٍ ديني (مسيحي–غير مسيحي). الحلقة الثانية كانت الحملةِ الاستعمارية وغزو الأميركيتين، وكانَ أثرُها على الخطاب الإقصائي بأن تحوّلت أسسه من دينية، إلى أسس عُنصرية عرقية تمتزجُ مع الدين. الحلقة الثالثة هي حرق أجساد النساء «الساحرات» وعلى أثره أصبح الخطاب الإقصائي أيضاً على أساساتٍ جندريّة. والحلقة الرابعة هي التي يختتمُ بها ديكارت، ويضبط أركان المُتخيّل الغربي، وأدواتهِ، ومنهجيّته.[٦] وما يهمّ بحثي وسؤالي عن المُشكلة اليهوديّة، سنجدهُ في العلاقات التي تطوّرت بين الإمبراطوريات الاستعمارية واليهود كتصنيف عرقي حديث، في الحلقات الزمنية الأولى وأيضاً الثانية.

في أواخر القرن الخامس عشر، بدأت مملكة قشتالة في غزو السلطنة الإسلامية الأخيرة في شبه الجزيرة الإيبيرية، سلطنة غرناطة، وقد تخلل هذا الغزو؛ طردٌ للجماعات المُسلمة واليهودية، وإبادة إما ماديّة أو ثقافية–معرفية لهذهِ الجماعات. ويُلاحظ غروسفوغل بأن من بقي من هذهِ الجماعات قد تعرّضت منظومته الثقافية–المعرفية لإبادةٍ، من خلالِ حرقِ العديد من المكتبات، وأيضاً إقصاء الروحانيات والعبادات الاسلامية واليهودية من الحيّز العام، وإجبارهم على اعتناقِ المسيحية، وهذهِ المُمارسات كانت تحت إطارِ الخطاب –طهرانيّة الدم– بالمعنى الديني فقط، بمعنى تستطيع هذهِ الجماعات اعتناقِ المسيحية والبقاء في مكانِها. ويذكر المؤرخ وعالم الاجتماع المسيري، بأن العزلة القسرية على اليهود وصلت قمّتها في القرن الخامس العشر، في مملكةِ قشتالة فقد أصدَر الملك فرديناند والملكة ايزابيلا قراراً بإحاطة أحياء اليهود والمُسلمين بالجُدران، وأصدرا قرارا مُماثلا في البُرتغال، وكان الجيتو الشكل الشائع في أوروبا[٧].

لم يكن الخطاب الاستعماري بعد يُناقش «إنسانيّة» هذهِ الجماعات، وكان الخطاب يفترضُ بأنهم بشرٌ ولكن الهويّة الدينية للذوات الاجتماعية (اليهودية والإسلامية) هي على خطأ ويجب إقصاؤهم على هذا الأساس. نرى هُنا جذور الهيراركيات الاجتماعية من خلال تصنيف الهويات الدينية، حتى الآن. ولكن بعد استعمار الأميركيتين والاحتكاك مع الشعوب الأصلانية، سيمرّ الخطاب الاستعماري في تحوّلات، وسيمتدّ أثرُها، إلى جميع الإمبراطوريات الاستعمارية التي ستظهر لاحقاً[٨].

الهوية المركزية التي كانت تُحرّك مملكة قشتالة في شبه

يُناقش غروسفوغل بأن التحوّل من خطابِ الجماعات غير المسيحية، إلى خطاب الجماعات الفاقدة للدين، حفّز النقاشاتِ الاستعمارية حول «إنسانيّة» هؤلاء الشعوب «الهندية» في الأميركيتين، على أنها شعوب بدون روح، بمعنى أنها ليست جماعات إنسانيّة.

الجزيرة الإيبيرية – سُلطة واحدة، هوية واحدة، دين واحد. وهذهِ الهوية، كما يقول غروسفوغل، هي أساسُ الدولة القومية الحديثة لاحقاً، مما سيجعل المُمارسات؛ الإبادة المادّية، وأيضاً الإبادة الثقافية–المعرفية، بحقّ الجماعات والتعدديّات في الأندلس، شرعيّة بل واجبة.

وستون هذهِ المُمارسات بارزة في الأميركيتين، ولكن التحوّل في سياق استعمارِ الاميركيتين، ينبع من تعريف الشعوبِ الأصلانية على أنها –فاقدة للدين– مما حفّز أشكالا جديدة من الهيراركيات العُنصرية والإبادة. يُناقش غروسفوغل بأن التحوّل من خطاب الجماعات غير المسيحية، إلى خطاب الجماعات الفاقدة للدين، حفَّز النقاشاتِ الاستعمارية حول «إنسانيّة» هؤلاء الشعوب «الهندية» في الأميركيتين، على أنها شعوب بدون روح، بمعنى أنها ليست جماعات إنسانيّة، وكانت هذهِ النقاشات العُنصرية العرقية الأولى، التي حاولت تحديد ماهيّة هذهِ الشعوب، من أجل تقريرِ مصيرهم؛ إمّا العمل الجبري في حالٍ كانوا جماعات إنسانية، أو الاستعباد في حالٍ كانوا جماعات غير إنسانية. ولكن الحسم في هذهِ النقاشات لم يعد مُهمّا، طالما أصبح المعيار هو العرق والدين، ووفقاً لذلك يتمّ تحديد مكانهم في مُخطط الهيراركيات الاستعمارية، الذي سيتمّ استخدامه في تقسيم العمل على مستوى العالم. في المُقابل فقد حُسم النقاش حول الشعوبِ الافريقية لدى الأجهزة الاستعمارية على أنها فاقدة الدين والروح، وغير إنسانية، ومن خلال ذلك تم تحديد مكانهم كعبيد في مُخطط الهيراركيات، ونقلهم إلى الأميركيتين. ويتم التحكّم وازاحةِ الجماعات والشعوب وفقَ المصالح الاستعمارية.[9] كان لهذهِ التحوّلات الأثر الكبير في إقصاء الجماعات اليهودية أيضاً، في الأندلس، وعزلها وقمعها، من خلالِ تصنيف اليهود كغير مسيحيين وإضافةِ معان جديدة عرقية، على انهم غير أوروبيين:

« تحوّل محور النقاشات الاستعمارية من «أشخاص بلا دين» إلى «أشخاص بلا روح». أنتج هذا الجدل والنقاش العنصري الاستعماري أثر طفرة أعادت، بدورها، تعريف وتحويل الخطابات الدينية المُهيمنة في العصور الوسطى. وهكذا اكتسب مفهوم «طهرانيّة الدم» معنى جديدا. «طهرانيّة الدم» لم تكن إلا تقنيّة قوّة من أجل إقصاء الأشخاص الذين لديهم أصل مسلم أو يهودي في شجرة العائلة والتأكد من أنه / هي لا يزيّفون التحول، في غزو الأندلس في القرن الخامس عشر. ولكن معنى «طهرانيّة الدم» بعد غزو الأميركيتين ومع ظهور مفهوم «شعوب بلا روح» تحولّت من مسألة لاهوتية حول وجود «الدين الخاطئ» إلى سؤال حول «إنسانيّة» الذوات التي تُمارس الدين الخاطئ.»[10]

جعلَ التحوّل في الخطاب الاستعماري التصنيفات العرقية العُنصرية عبرَ الدين، هي التي تُحدد مكانك في المُخطط الاستعماري، ومكانك في الهيراركيات الاجتماعية، وموقعك في مخطط تقسيم العمل. هُنا اكتسبَ الاستعمار آليّات جديدة في معاني العُنصرية، ولذلكَ ستُعاني الجماعات؛ غير المسيحية وغير الأوروبية من قمعٍ وإبادة وتُصبح هدفاً للهيمنة الأوروبية. بهذا المعنى أصبح اليهود، كجماعات يهوديّة في أوروبا، أقل وأدنى كعرقٍ ودين، ضمن مُخطط الهيراركيات، الذي يتصدّره العرق الأبيض، الأوروبي والمسيحي، وتُعاني من الاضطهاد والعزلة القسرية والابادةِ المعرفية–الثقافية ولاحقاً ابادةٍ مادّية في القرن العشرين.

يُناقش غروسفوغل بأن العُنصرية والعداء لليهود على أساسٍ عرقيّ، يندرج تحت الخطاب الاستعماري منذُ أواخر القرن الخامس والقرن السادس عشر، وقد صُنف اليهود على أنهم أقل وأدنى من العرق المسيحي الأوروبي، وفي هذهِ الفترة تحديداً أخذ العداء لليهود معايير عرقية، تُناقش الذات الانسانيّة لمن يعتقدون باليهودية أو الاسلام وغيرهما. وخلالِ ذلك برزت المُشكلة اليهوديّة في الإمبراطوريّات الأوروبية الحديثة؛ بريطانيا، فرنسا، ألمانيا، شبه الجزيرة الإيبيرية.. وإلخ.

من هُنا، أوّد مُناقشة علاقات الصهيونية والإمبراطورية، وطرح سؤالين، ينطلق كلّ منهما من منظور مُختلف لنشوءِ الصهيونيّة، في واقعٍ أوروبي أصبح يضطهد ويقمع ويُبيد على أساسٍ عرقي. وسيكون لكلّ منظور أثر في تحديد وفهم العلاقات التي تشكّلت بينَ الصهيونية والإمبراطوريات الأوروبية؛ السؤال الأول، هل الصهيونية هي حركةِ القومية تطمح لإنقاذِ اليهود من الإمبراطوريّات الاستعمارية العُنصرية، وعلى هذا الأساس تطوّرت العلاقات بينهما؟ السؤال الثاني، هل الحركة الصهيونية هي جُزء

جعلَ التحوّل في الخطاب الاستعماري التصنيفات العرقية العُنصرية عبرَ الدين، هي التي تُحدد مكانك في المُخطط الاستعماري، ومكانك في الهيراركيات الاجتماعية، وموقعك في مخطط تقسيم العمل. هُنا اكتسبَ الاستعمار آليّات جديدة في معاني العُنصرية، ولذلكَ ستُعاني الجماعات؛ غير المسيحية وغير الأوروبية من قمعٍ وإبادة وتُصبح هدفاً للهيمنة الأوروبية.

من مُخطط الهيراركيات، ومُخطط تقسيم العمل وفق تصنيفاتٍ عرقيّة، وعلى هذا الأساس تطوّرت العلاقات بينهما؟

سيحدد هذان السؤالان، نقاشي في فصولِ المقالة، ونقاشي مع الهيستوغرافيا التي نشأت حولَ الصهيونيّة، من خلالِ ربط الواقع الذي نمت فيهِ المُشكلة اليهودية بالتطوّرات التي جرت في القرن التاسع عشر وتشكّل الحركةِ الصهيونية، وصياغة منظور أقرب للواقعِ الأوروبي؛ أي واقع الهيراركيات والرأسمالية، بالتشابك مع نموّ طبقة وسطى يهودية تطمح لبناء دولة قومية.

الجذور: التشابك الأول – الصهيونية والإمبراطورية

«أعتقد بأنني أتفهم مُعادة السامية، وهي بالفعل حركة بالغة التعقيد. أنا أنظرُ إليها من وجهة نظر يهودية، ولكن دونما كراهيّة أو خوف. أظن أنني أدرك ما تنطوي عليه، مُعادة السامية من سُخرية سوقية، وغيرة مُتبادلة، وتحيّز متوارث، وتعصب ديني، ودفاع مزعوم عن النفس. وأرى أن قضيّة اليهود لم تعد قضية اجتماعية ولا دينيّة، حتى وإن كانت في بعض الأحيان تتخذ هذهِ الأشكال أو أشكالا أخرى، إنها قضية قومية لا يُمكن حلّها إلا إذا أصبحت قضيّة سياسية عالمية، يتم تسويتها في ظلّ مجلس تتشاور فيه الأمم المُتحضرة.»[11]

–ثيودور هرتسل

بعد أن وضّحت المُشكلة اليهوديّة الحديثة؛ بداية اضطهاد وإبادة سواء ثقافية–معرفية أو مادية على أساساتٍ عرقية، التي برزت في دول غرب أوروبا بالأساس؛ وفي شرقِ أوروبا برزت أشكال أخرى من العداء لليهود والسامية، ولكنها ليست مُتعلقة بموضوع المقالة، لأن الإمبراطوريات الاستعمارية التي تشابكت معها الصهيونية كانت في غربِ أوروبا. أوّد تحديد جذور الصهيونية من خلالِ منظورين في «هيستوغرافيا» الصهيونية: الأيديولوجي، الذي يرى بأنّ الصهيونية هي حركة قوميّة، نتجت كخيبةِ أمل، عن ديناميكيّات من داخلِ المُجتمعات الأوروبية وانحدارها نحو العُنصرية والعداء لليهود بشكلٍ حادّ في القرن التاسع عشر، بعد طموحات عصر التنوير والحداثة. المنظور الثاني: التاريخي–السوسيولوجي الذي ينظر للصهيونية كجُزء من مُخطط الهيراركيات الاستعماري، عبرَ التحكّم وإزاحة والهيمنة على الجماعاتِ الانسانية، على أساساتٍ عرقيّة.

لا يُمكن استيعاب وفهم جذور الصهيونية دونَ علاقتِها مع الإمبراطوريّات، أو «الأمم المُتحضّرة» كما تحدّث وكتبَ هرتسل وغيرهُ الكثير من آباءِ الصهيونية منذُ بدايةِ القرن التاسع عشر، كما يذكر المؤرخ إيلي ليفي.[12] تحليلنا وفهمنا، للتشابك الأول بين الصهيونية والإمبراطورية مُتعلّق بالمنظور «الهيستوغرافي» الأيديولوجي أو التاريخي–السوسيولوجي.

نُلاحظ جانبين للعلاقات الصهيونية والإمبراطورية؛ الجانبُ الأول هو الحاجةِ الأوروبية لإزاحةِ وإبادةِ «العرق اليهودي» كجُزء من مُخطط الهيراركيات الاستعمارية، كونهُ أصبح عبئًا على العرق الأبيض الأوروبي، اقتصاديا بالأساس. يعتمد هذا التحليل المنظور السوسيولوجي–التاريخي. بعد تشكّل الخطاب الاستعماري تحولت التصنيفات العرقية والعُنصرية في القرنِ التاسع عشر إلى خطاب علمي بيولوجي، ولذلك فإن الإزاحةِ والهيمنة على مصير الأعراق والشعوب هي خصالِ الإمبراطوريّات الاستعمارية. وقد استطاعت الفيلسوفة حنة آرندت فهم ذلك حين حاولت تفسير جذورِ العداء لليهود كجُزء من نموّ العُنصريات في العالم الحديث.

ثمّة علاقة بين صعودِ الإمبراطورية وخطابها العُنصري العرقي وبين نموّ رأس المال الذي يُنتج بدورهِ فائض القيمة، فبالمُقابل مع تطوّر الرأسماليّة والعمل والآلة أصبح يُنتج «فائض امن البشر»، والإمبراطورية ليست بحاجة لهؤلاء الأعراق والشعوب التي تكون في أدنى السلُم الاجتماعي–العالمي. هكذا تتطوّر الحاجة والوسائل للإزاحة، الهيمنة والإبادة[13]. وهو الأمر بالنسبة للمشروع الصهيوني كمُتخيّل، فالإمبراطورية في أوروبا لم تعد بحاجة إلى اليهود «العرق اليهودي» لذلكَ وجبَ عليها إزاحتهم من الجُغرافيا الأوروبية، في البداية بدأت الفكرة تجولُ في مُخيلة نابليون منذُ أواخر القرن الثامن عشر[14].

أوّد تحديد جذور الصهيونية من خلالِ منظورين في «هيستوغرافيا» الصهيونية: الأيديولوجي، الذي يرى بأنّ الصهيونية هي حركة قوميّة، نتجت كخيبةِ أمل، عن ديناميكيّات من داخلِ المُجتمعات الأوروبية وانحدارها نحو العُنصرية والعداء لليهود بشكلٍ حادّ في القرن التاسع عشر، بعد طموحات عصر التنوير والحداثة. المنظور الثاني: التاريخي-السوسيولوجي الذي ينظر للصهيونية كجُزء من مُخطط الهيراركيات الاستعماري.

في إطارِ تنافس الإمبراطوريات الفرنسية–البريطانية، والهيمنة من خلالِ الإزاحة والتحكّم في الجماعات البشرية أو العرقيّة والدينية المُصنفّة معياريّا على أساسٍ ديني، عرقي، وهو أمرٌ مُتّبع في السياسات الاستعماريّة، نقل العديد من الجماعات الافريقية إلى الأميركيتين، وطردِت الجماعات البروتستانتية من الجُغرافيا الأوروبية، ودعم استيطانها في أستراليا وغيرِها. وعليه، ففي إطارِ التنافس السياسي والاقتصادي، لم تكن هذهِ الفكرة مُستبعدة، وبالأخص مع صعود العداء لليهودِ في أوروبا، واضطهادهم من قبلِ الشعوب الأوروبية ذاتِها التي تُمارس الخطاباتِ العُنصرية. في سياقِ «الفائض البشري» الذي أنتجتهُ الإمبراطورية، اضطرت الحكومات الاستعمارية إلى التعامل مع المُشكلة اليهوديّة، وهكذا بدأت تتشكّل الصهيونيّة، عبر علاقتِها مع الإمبراطورية.

برزت قبل الهجرة اليهوديّة أو الصهيونية الأولى ١٨٨٢، وقبلَ ظهور آباء الصهيونية؛ ثيودور هرتسل وليون بنسكر وغيرِهما، وقبلَ المؤتمر الصهيوني الأول ١٩٩٧، وقبلَ تبلور خطاب الصهيونية، برزت مُبادرات ومشاريع تهدفُ إلى وتُساهم في استيطان اليهودِ الأوروبيين لفلسطين (التي دُعيت «إيريتس يسرائيل» في الخطاب الصهيوني).

تنبع أهميّة هذهِ المشاريع من فهمِ التشابك الأول بين الصهيونية والإمبراطورية من المنظور السوسيولوجي–التاريخي الذي يرى بأن الصهيونية هي «علاقات» بينَ الإمبراطوريات الأوروبية وشخصيّات يهودية أو جمعيّات ومُنظمات، تتشابك في سياقات زمنية ومكانية، وتتطوّر من خلالِ المُساهمة في الآليات والمُمارسات الاستيطانية في فلسطين. لم تكن المبادرات والمشاريع الاستيطانية بعدُ ضمن إطار صهيوني مُنظم، كما ستُصبح جميع المشاريع والمُساهمات الاستيطانية بعد المؤتمر الصهيوني الأول وتأسيس «المُنظمة الصهيونية العالمية».

كان مشروع «مونتفيوري» أول من ساهم بإنشاء العلاقات بين الدعوةِ الصهيونية؛ الاستيطان في فلسطين وإنشاء وطن قومي لليهود، والإمبراطورية البريطانية. وقد حفّز شبكة علاقات يهودية عالمية من أجل الاستيطان في فلسطين، وخصوصاً يهود أوروبا والمُضطهدين من العُنصرية والمُضايقات على أساس عرقي، لذلك نرى بأن ممارسات شراء الأراضي وبناءِ أحياء يهودية في يافا والقُدس ومناطقَ أخرى في فلسطين، وتشييد مدارس زراعية لتدريب المستوطنين اليهود، كانت تصبّ في مصب إعداد فلسطين لمشروع استيطاني، منذُ أواسط القرن التاسع عشر، وكان يرى بضرورةِ توسيع المساحات والأراضي لاستيعاب أعداد أكبر من المُهاجرين اليهود[١٥].

في إطارِ تنافس الإمبراطوريات الأوروبية؛ الفرنسية، الألمانية، البريطانية والروسية، كانَ الشرق العربي وطوائفهِ المسيحية ساحةً للكسب والتوّسع. كانَ الكاثوليك تحت حمايةِ الفرنسيين، ثمّ تحتَ الحماية الألمانية، والطائفةِ الأرثوذكسية تحت حمايةِ الإمبراطورية الروسية، لذلكَ كانت بريطانيا أيضًا بحاجة إلى ذريعة للتدّخل والتوسع في هذهِ المنطقة، وقد كانت سيطرت على بيروت ومُعظم مدن الساحل اللبناني والفلسطيني.[١٦] بالإضافةِ إلى ذلك، بدأت بريطانيا أيضًا بتقويةِ علاقاتِها مع المجلس اليهودي البريطاني ودعم مشروع «مونتفيوري» والمُساهمة بإنشاء الدولة اليهودية، وقد كَتبَ الكولنيل تشارلز تشرشل إلى رئيس المجلس اليهودي البريطاني «مونتفيوري» بأنهُ يحثّ على إنشاء دولةٍ يهودية ويقترح التواصل مع اليهودِ الأوروبيين وتوجيههم نحو الاستيطان في فلسطين والسعي وراء الوطن القومي اليهودي في فلسطين[١٧].

وعليه، فقد حفّزت سياقات تنافس الإمبراطوريات التشابك الأول بين المشاريع والمُبادرات اليهودية الأوروبية للاستيطان في فلسطين، وقد ظهرَت أيضاً مشاريع استيطانيّة مسيحية–ألمانية في فلسطين. في هذهِ الفترة، ازدادت المشاريع الاستيطانية في العالم، ولم تكن المُبادرات اليهودية خارجة عن نسق الاستعمار–الاستيطاني؛ تدفعُ الإمبراطورية الجماعات البشرية للهجرةِ والاستيطان خارج الجُغرافيا الأوروبية نتيجة «الفائض البشري» وعدم الحاجة إلى الجماعات المُصنفة عرقيا ودينيا، الأقلّ قيمة كما في المُتخيّل الأوروبي العُنصري الحديث.

الجانب الثاني، يقودنا مشروع «مونتفيوري» إلى فهم مُغاير

في إطارِ تنافس الإمبراطوريات الأوروبية: الفرنسية، الألمانية، البريطانية والروسية، كانَ الشرق العربي وطوائفهِ المسيحية ساحةً للكسب والتوّسع. كانَ الكاثوليك تحت حمايةِ الفرنسيين، ثمّ تحتَ الحماية الألمانية، والطائفةِ الأرثوذكسية تحت حمايةِ الإمبراطورية الروسية، لذلكَ كانت بريطانيا أيضًا بحاجة إلى ذريعة للتدّخل والتوسع في هذهِ المنطقة، وقد كانت سيطرت على بيروت ومُعظم مدن الساحل اللبناني والفلسطيني.

أو «تأريخ» مُغاير لتطوّر هذهِ العلاقات؛ فالمنظور الأيديولوجي يُظهر العلاقات التاريخية والتطوّرات في الأحداث، والمُمارسات خلال القرن التاسع عشر، التي صاغت معاني جديدة لليهودية، على أنها جُزء من شبكةٍ أيديولوجية للقومية اليهودية أو الحركةِ الصهيونية في مسار التاريخ. يصبح التحليل والفهم للواقع التاريخي، جُزءا من أيديولوجيا تُباشر بإنشاء الذوات اليهودية على أساسٍ عرقي قومي (وفقَ التصنيف الأوروبي الأبيض) على امتداد القرن التاسع عشر والقرن العشرين. تبدأ المؤرخة أبيجيل جرين بالنظرِ إلى مشروع «مونتفيوري» من خلال اقتفاء أثرهِ على القومية اليهودية وتطوّر الصهيونية، وصياغتهِ «اليهوديّة الدولية» عبر الحفرِ في جوانب شخصيّة «مونتفيوري»، الولادة، الزواج، العمل، والنشاط.[١٨] يتبيّن لها بأن مشروع «مونتفيوري» يُعيد تشكيل اليهودية، كقوميّة مُتخيّلة عابرة للعالم، ويرى ذاته كجُزء من هذهِ القوميّة، ويلزم ذلك القيام بنشاطٍ من أجل الدفاع عن الحقوق اليهودية في كلّ أماكن تواجدهم.

تنطلق جرين من أنه كان لعصرِ الحداثة والتنوير الأوروبي أثر أيضاً على اليهوديّة، وتنظر إلى مشروع «مونتفيوري» من هذا السياق المعرفي التاريخي، بكونه مُحاولة لخلقِ تجربةٍ يهودية جديدة مُغايرة عن التجربةِ الدينية. كان «مونتفيوري» سفارديا تزوّج من امرأة يهودية أشكنازية، وعمِل في التجارةِ والمال، وقد كانَ لذلك تبعات على تطوّر علاقاتهِ مع عائلات يهودية في أوروبا وأيضاً الحكومات الإمبراطورية؛ فرنسا وبريطانيا. ليُصبح قادراً على التأثير في العديد من القضايا اليهودية في العالم مثل العداء للسامية المُتزايد في رومانيا والمُضايقات والعداء لليهود في الإمبراطورية العُثمانية. بالمُقابل ازدهار الصحف والإعلام اليهودي في تلكَ الفترة، قد كانَ لهُ أثر على العاطفة اليهودية وصياغة المعاني الجديدة لمفهوم اليهودية في نطاق عالمي:

«إلى جانب هذه الأحداث (المُعادية للسامية التي شهدها مونتفيوري) التي طال أمدها نسبيًا، سهلت المنشورات العديدة التي تلبي احتياجات الجمهور اليهودي في القراءة نشر أخبار الكوارث اليهودية على وجه التحديد وتنسيق الاستجابة الدولية المنظمة. وهكذا، كان ظهور لوبي يهودي متماسك يتجاوز الحدود الوطنية ويعتمد بشكل مباشر على وجود مجال عام عالمي حقيقي، يمتد من مستعمرات المستوطنين البيض في أميركا وأستراليا عبر أوروبا الغربية والشرقية إلى يهود الشرق الأوسط. يتيح لنا مسار «مونتفيوري» الخيري الشخصي رؤية كيف حدث هذا التحول.»[١٩]

تختمُ جرين مقالتها لفهم شخصية «مونتفيوري» ونشاطهِ ونجاحاتهِ في تحسين الأحوال اليهودية على مستوى عالمي، بالقول إنها حفّزت التخيّل القومي اليهودي، وأصبحَت جُزءا من الرموز القومية اليهودية أو «اليهوديّة الدولية». ويمكن أن نلاحظ ان التأريخ «الهيستوغرافيا» الأيديولوجي عن مشروع «مونتفيوري» يقلل من أهمية علاقاتهِ مع الإمبراطوريات، ونرى نزع السياقات والعلاقات التاريخية والإبستيميات عن قراءةِ الحدث التاريخي بما تتضمنهُ من تفاقم العُنصريّات والعداء على أساساتٍ عرقية، وصناعة الهيراركيات في العالم الحديث الأوروبي تحديداً. وأنا أسمي هذا التأريخ «تأريخا أيديولوجيا» لإبراز عمليّة فصل الأحداث التاريخية عن بعضِها وإعادةِ تفسيرها من أجل التحكّم بتطوّر الحركةِ الصهيونية بشكلٍ مُنعزل عن العلاقات التي تشكّلت مع الصهيونية، كما تحدّثتُ سابقاً عن حاجةِ الإمبراطورية لطردِ وتهجير «الفائض البشري».

ونرى ذلك منذُ بدايةِ «الهيستوغرافيا» الصهيونية التي تبني الأيديولوجيا القومية من خلالِ عمليّة ربط الأحداث والتجارب التاريخية لليهود في إطار سردي مُتماسك دونَ مُعالجتِها في سياقاتِها وعلاقاتِها الاجتماعية، الاقتصادية والسياسية، وبذلك يتم بناء سردية معيارية لمفهوم اليهودية والقومية والصهيونية، وتكونُ علاقاتِها في الخارج، هي علاقة أداتية، لتحفيز المشروع. هكذا نرى الكتابات التاريخية عند «المؤرخين الأيديولوجيين».

في أواخر القرن التاسع، نجد ذلك أيضاً عند المؤرخ الصهيوني بن تسيون دينور، عبر كتابةٍ تركز على ديناميكيّات الجماعات

في مقالةٍ كتبتها حنة آرندت عن مشروع الصهيونية، والقومية اليهودية كما تجلّت عند هرتسل في المؤتمرات منذُ ١٨٩٧، وضّحت أمرًا في غايةِ الأهمية لموضوعنا حولَ تشكّل العلاقات بين الإمبراطورية والحركةِ الصهيونية[٢٢] ينعكس من خلال السؤال: كيف رأت ونظرت الصهيونية لفعلِ ولظاهرة «العداء للسامية»؟ تقولُ آرندت بأن ما يُميّز اليهودي الصهيوني هو أنه استطاعَ النظر إلى «العداء للسامية».

اليهودية، في تجاربها، في نصوصِها، في رموزها، وإعادة تركيب تاريخِها في إطارٍ جامع، وتلغي التناقضات العديدة الثقافية والمعرفية والدينية وتحوّل الجماعات اليهودية، للشعبِ اليهودي، من خلال تشييد أعمدةِ الأساس عبر المؤسسات والحوليّات العلمية لكتابةِ التاريخ والأثنوجرافيا حول «إيريتس يسرائيل».[٢٠] ومُلاحظتي الأساسية بأن بن تسيون دينور خلال كتابتِهِ التأريخيّة (الهيستوغرافية) عن تطوّر الوعي الجمعي والقومي عند اليهود؛ تعرّض إلى العلاقات مع الإمبراطوريّات فقط كعامل خارجي أداتي، إما مُحفّز للعداء للسامية أو مُحفّز للحركةِ صهيونية. كما نجدُ ذلك في كلمات هرتسل، التي ترى بأن المسألة اليهودية، هي قومية، وقد تشكّلت وأصبحت ناجزة، ويجبُ العمل على تجسيدها، من خلال مجالس الأمم المُتحضّرة. وأوّد بأن أطرح الإشكالية التي ألاحظها في العلاقة بينَ الحركة الصهيونية، والإمبراطورية في طورِ تشكّل الحركة، أواخر القرن التاسع عشر، وهي تتمثل في السؤال: كيف أهملت الحركة الصهيونية أثرُ الإمبراطورية في تطوّر أزماتِ اليهود حولَ العالم، والعداء للسامية؟ وفي إعداد المشروع القومي على أساس التعاون مع الإمبراطوريات؛ فرنسا وبريطانيا؟ مما يُعيدنا إلى السؤال، هل تشكّلت الحركةِ الصهيونية بشكل مُنعزل عن مُخطط «الهيراركيات» للإمبراطورية، وحاجاتِها، ودوافعها؟

التشكّل: أثرُ الإمبراطورية في الحركة الصهيونية

«تُمثل المحرقة، أحد الأشكال المتطرفة «للحلول النهائية» الأوروبية، لكنها لم تكن الجُهد الوحيد لمعالجةِ المسألة اليهودية في أوروبا في النصف الأول من القرن العشرين. كان هناك «حل نهائي» معادٍ للسامية تم التفكير فيه مبكرًا من قبل الألمان في ظل الاشتراكية القومية النازية، لكن تم تطويره بواسطة البريطانيين وكان ذلك نقل {طرد} اليهود من أوروبا.»[٢١]

–رومان غروسفوغل

في مقالةٍ كتبتها حنة آرندت عن مشروع الصهيونية، والقومية اليهودية كما تجلّت عند هرتسل في المؤتمرات منذُ ١٨٩٧، وضّحت أمرًا في غايةِ الأهمية لموضوعنا حولَ تشكّل العلاقات بين الإمبراطورية والحركةِ الصهيونية[٢٢] ينعكس من خلال السؤال: كيف رأت ونظرت الصهيونية لفعلِ ولظاهرة «العداء للسامية»؟ تقولُ آرندت بأن ما يُميّز اليهودي الصهيوني هو أنه استطاعَ النظر إلى «العداء للسامية» من عيونِ المُعادي للسامية؛ المنشورات الكلاسيكية للأدب الصهيوني، عند هرتسل وبنسكر تُحيلنا لفهمٍ جوهريّ إزاء اليهودي:

"من منظورِ الحي، اليهودي هو جُثة. من منظورِ الأصلاني، اليهودي هو أجنبي. من منظورِ المواطن، اليهوديّ هو متشرد. إلى صاحبِ الأملاك، اليهوديّ متسول. ومن منظورِ الفقراء، اليهوديّ مستغل ومليونير. ومن منظورِ الوطني، اليهوديّ رجل بلا بلد. سيكون اليهوديّ بالنسبة للجميع، المُنافس المكروه».

في كلّ بُعد زماني ومكاني، يُعاني اليهودي، ليسَ نتيجة ديناميكيّات تاريخية واجتماعية في أوروبا، أدّت بدورِها لتطوّر المُشكلات العُنصرية والعرقيّة، بل نتيجة مشكلةٍ أكثرُ عُمقاً وجذرية هي أن اليهودي غريب دائماً عن الشعوب والأمم المُتحضرة. وعلى هذا الأساس وضع مُنظرو الصهيونية حلّا للمُشكلة اليهودية من منظور المُعادي للسامية، ومُلائم للواقعِ الراهن في شكلهِ السياسي والاقتصادي. بأن يبحث اليهود كشعب وعرق – وفق التصنيف العرقي الأوروبي، على وطنٍ وأرض بدون أمّة وشعب، ويكونون بذلك جُزءا من الأمم المُتحضرة.

تحكي آرندت بأن الجمهورية الفرنسية، هي الدولة «الحُلم» الذي كان يُطارد هرتسل. لم تكن موجودة حقّا، ولم تكن مُتاحة للجميع، بل فقط للفرنسيين – المسيحي الكاثوليكي الأبيض. ولكي يكون جُزءا من الأمة الفرنسيّة ويُساهم في تحقيق المفاهيم والأفكار الفلسفية والسياسية للجمهورية الفرنسية، عليهِ أن يكون جُزءا من هذهِ المنظومة الإمبراطورية؛ تطوير القومية اليهودية، والدولة اليهودية خارج جُغرافيا الأمم

«الحل النهائي» البريطاني وأيضاً الفرنسي للمُشكلة اليهودية، وهو نقلهم إلى خارج الجُغرافيا الأوروبية كانَ لهُ جذور منذُ بدايات القرن الثامن عشر. بالمُقابل الطبقةِ اليهودية التي تمازجت واندمجت (assimilation) مع الإمبراطورية، وتركت العُزلة اليهودية الثقافية «الجيتو»، كانت تعلم بأن العُنصرية والعداء لليهودية أكثرُ عُمقاً ولن ينتهي عبر التمازج مع الإمبراطورية.

المُتحضرة، وينتقل إلى جُغرافيا بدون أمّة وشعب، لتكونَ جُغرافيا القومية اليهودية. تفيدنا آرندت في فهم الصهيونية فلسفيّا من خلال طرحها للسؤال كيف نظرَ مؤسسي الصهيونية إلى المُشكلة اليهودية، وعلى أيّ أساس تمّت بلورة الحلّ للمُشكلة اليهودية. ووفقاً لها نجد بأن الصهيونية تشكّلت عبرَ عيون الإمبراطورية للمُشكلةِ اليهودية، ولكي أكون أكثر دقة، تشكّلت عبر عيون المُعادين للسامية.

«الحل النهائي» البريطاني وأيضاً الفرنسي للمُشكلة اليهودية، وهو نقلهم إلى خارج الجُغرافيا الأوروبية كانَ لهُ جذور منذُ بدايات القرن الثامن عشر. بالمُقابل الطبقةِ اليهودية التي تمازجت واندمجت (assimilation) مع الإمبراطورية، وتركت العُزلة اليهودية الثقافية «الجيتو»، كانت تعلم بأن العُنصرية والعداء لليهودية أكثرُ عُمقاً ولن ينتهي عبر التمازج مع الإمبراطورية.[٢٣] ولذلكَ ترى آرندت بأن هذهِ الطبقة هي بالذات التي طوّرت المشروع اليهودي السياسي والقومي، من خلالِ آثارِ تجربة التمازج والاندماج، لذلكَ كانَ مشروعها هو مشروعُ الإمبراطورية، ومنذُ أواخر القرن التاسع عشر بدأت العلاقات بالتشكّل وفقَ ترتيبات ومصالح الإمبراطورية البريطانية في المنطقةِ العربية؛ وقد تطوّرت هذهِ المصالح منذُ بدايات القرن التاسع عشر، ونموّ التجارةِ والاقتصاد البريطاني على مستوى العالم، وضمان التحرّك إلى القسمِ الآخر من الإمبراطورية، في الهند كما يذكر ألبرت حوراني في دراستهِ حول السياسات البريطانية في «العالم العربي»[٢٤]. وبالتالي نمت شبكة العلاقات الاستعمارية في شكلِها الإمبراطوري العالمي.

نُشرت مقالات عديدة في أواخر القرن التاسع عشر، حولَ بدايات التشابك بين الحركة الصهيونية والإمبراطورية البريطانية، ضمن شبكة العلاقات الاستعمارية البريطانيّة. كما يروي الصحافي والبارز في الحركةِ الصهيونية، ناحوم سوكولوف (Nahum Sokolow) بأن التشابك الصهيوني– البريطاني كانَ يُعبّر عن شبكةٍ وثيقة من المصالح والمُمارسات التي شكّلت العلاقات بينَ الحركةِ الصهيونية والإمبراطورية البريطانية[٢٥]. ومن هُنا تطوّر الخطاب الاستيطاني لفلسطين، من أجل الاستيطان اليهودي الأوروبي في هذهِ الفترة، ضمن مُخطط بريطانيا في «الشرق الأوسط» بعدَ احتلالِ مصر ونضوجِ ضرورات الهيمنة الإمبراطورية في المنطقة.

حفّزت مجالات المُمارسة الإمبراطورية التي تطوّرت بفعلِ أحداثٍ تاريخية وفرضيات اقتصادية، سياسية ومعرفية نقل اليهود من أوروبا ضمن مُخطط الهيراركيات الذي وجدنا جذورهُ منذُ القرون الاستعمارية الأولى، الخامس عشر والسادس عشر، لتُصبح الجماعةِ اليهودية الأوروبية هي العمود الأساسي للضرورات الاستعمارية. وهذهِ الجماعة بالمُقابل وجدت لنفسِها بشكلٍ بطيء مكاناً وحافزاً في الخطاب الاستعماري، لفلسطين تحديداً في أواخر القرن التاسع عشر. وكانت تعمل على تثبيت هذهِ العلاقات ودفعها إلى التنفيذ، كما يتضح لنا من خلال نشاط «حركة أحباء صهيون» في الإمبراطورية البريطانية، والتشجيع على اتخاذ مُبادرات سياسية نحو الاستيطان في فلسطين[٢٦].

تشكّلت السياسات البريطانية منذُ بدايات القرن العشرين، في سياق تنافس بينَ–الإمبراطوريات الأوروبية، على مناطق نفوذٍ في العالم، وضمانِ تراكم رأس المال، لذلك نرى أشكالاً عديدة وأحياناً مُتناقضة من التحالفاتِ والاتفاقات التي عقدتها الإمبراطورية البريطانية سواء مع القبائل في شبه الجزيرة العربيّة أو مع حركاتٍ قوميّة عربيّة أو إسلاميّة، والحركةِ الصهيونية كانت أيضاً جُزءا من هذهِ «العلاقات المُتصادمة» إبان الحرب العالمية الأولى.[٢٧] ولكن ما يُميّز الحركةِ الصهيونية بأنها ترى الواقع من خلالِ أعين الإمبراطورية، وتعي حاجاتِها، وتمكّنت من فهم هذهِ التناقضات، وصياغتِها من أجل ضمانِ استمرارية دعمِ الإمبراطورية لمشروعِ الاستيطانِ اليهودي الأوروبي في فلسطين.

بمعنى هي أصبحت قادرة بأن تخلق مجالاً للعمل وفقَ

ولكن ما يُميّز الحركةِ الصهيونية بأنها ترى الواقع من خلالِ أعين الإمبراطورية، وتعي حاجاتِها، وتمكّنت من فهمِ هذهِ التناقضات، وصياغتِها من أجل ضمانِ استمرارية دعمِ الإمبراطورية لمشروعِ الاستيطانِ اليهودي الأوروبي في فلسطين.

مصالحها القومية؛ الاستيطان في فلسطين وأيضاً وفق مصالح الإمبراطورية؛ ضمان النفوذ والهيمنة على طُرق التجارة في العالم، والحفاظ على الشكلِ الإمبراطوري لبريطانيا. ويُحدد ذلك وايزمان بمقولةٍ سياسية واضحة: «.. ينبغي بأن تقع فلسطين في دائرة النفوذ البريطاني، وبذلك سيكون تحفيز الاستيطان اليهودي ضروريّ لها، وبشكلٍ تبعيّ لبريطانيا. قد يكون لدينا في غضون ٢٠ إلى ٣٠ سنة، مليون يهودي – ربما أكثر؛ ... يشكلون حارسًا فعالًا لقناة السويس.»[٢٨] يتضح لنا المنظور الصهيوني في هذهِ المقولة، من خلالِ مُركبين؛ الإمبراطوري، كما رأينا في تحليلِ حنة آرندت، بأن الصهيونية استطاعت بأن تفهم وتعالج المُشكلةِ اليهودية من خلالِ عيون «اللاسامية». والمركب القومي، الصهيونية وضعت خطة عملِها لتحقيق الاستيطان اليهودي في فلسطين، وبناء الوطن اليهودي القومي، عبرَ «الواقع الإمبراطوري» الحديث.

وهُنا نجد السياقات التي أنتجت وأيضاً دعمّت وحفّزت «إعلان بلفور» (the Balfour declaration) في الحرب العالمية الأولى وما بعدها، بأن الحركة الصهيونية استطاعت أن تجعل مشروع الاستيطان اليهودي في فلسطين ضمن أولويات الإمبراطورية، بفعلِ استيعابِ للاعتباراتِ الإمبراطورية عند انتهاءِ الحرب العالمية الأولى. وسيرورةِ أحداثٍ تاريخية أدّت لبروزِ المشروع الاستيطاني ليهودِ أوروبا في فلسطين أو «الحلّ النهائي» لنقلِ اليهود خارج الجُغرافيا الأوروبية، بشكلهِ السياسي والعالمي منذُ «إعلان بلفور». وقد كان حاييم وازيمان مُساهما في رسمِ هذهِ السياسات الإمبراطورية تجاه الاستيطان اليهودي في فلسطين بالتوافق مع طموحاتِ الحركةِ الصهيونية.[٢٩] ولذلكَ أصبحنا نرى أثر الإمبراطورية جوهريّ في تحفيز الاستيطان اليهودي والمشروع الصهيوني؛ بمعنى أن فصل المصالح والتوافقات، بين الحركةِ الصهيونية والإمبراطورية البريطانية أصبحَ غير مُمكن. فقد نضجَ المشروع الصهيوني سياسياً وعالميا من خلال العلاقات المُتشابكة مع مصالح الإمبراطورية البريطانية.

الهيمنة: نحو تأسيس الدولة اليهودية

"يعترف مجلس عصبة الأمم بالوكالة اليهودية كهيئة عمومية لإسداء المشورة إلى إدارة فلسطين الانتدابية والتعاون معها في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك من الأمور التي قد تؤثر في إنشاء الوطن القومي اليهودي ومصالح السكان اليهود في فلسطين، ولتساعد وتشترك في ترقية البلاد على أن يكون ذلك خاضعاً دوماً لمراقبة الإدارة. يعترف بالجمعية الصهيونية كوكالة ملائمة ما دامت الدولة المنتدبة ترى أن تأليفها ودستورها يجعلانها صالحة ولائقة لهذا الغرض، ويترتب على الجمعية الصهيونية أن تتخذ ما يلزم من التدابير بعد استشارة حكومة صاحب الجلالة البريطانية للحصول على معونة جميع اليهود الذين يبغون المساعدة في إنشاء الوطن اليهودي».[٣٠]

عصبة الأمم، المادة الرابعة، صك الانتداب البريطاني على فلسطين، ٢٤ تموز ١٩٢٢

«أود أن أؤكد أن ميثاق عصبة الأمم أو صك الانتداب، هو التزام على العالم المُتحضر. أجل، التزامُ فرض، على دولة عظيمة وذيّلته بتوقيعها وتعهدها بشرفها، لا لمجرد الابتسام لنا برقّة من بعيد، ولا لمُجرد الحفاظ على علاقاتها الودية معنا، ولكن تنفيذاً لوعد قطعته على نفسها وهو أن تقيم عهداً يسهل علينا استيطان فلسطين استيطاناً استعمارياً، وأن تنظم جهاز الإدارة فيها بشكل يضمن فتح البلاد على جانبي نهر الأردن لاستقبال الجماهير الغفيرة من المستعمرين المستوطنين.»[٣١]

– خطاب جابوتنسكي في المؤتمر الصهيوني السادس عشر، سويسرا ١٩٢٩

في هذهِ الفترة، أصبحت هيستوغرافيا العلاقات بين الحركةِ الصهيونية–الإمبراطورية؛ الأيديولوجي، والتاريخي–السوسيولوجي، مُتمازجتان في داخل الأحداث التاريخية التي حصلت منذُ «إعلان بلفور» بمعنى المنظور الأيديولوجي لتاريخ الحركةِ الصهيونية أصبحَ يعتمد أيضاً بشكلٍ أساسي على

أصبحت هيستوغرافيا العلاقات بين الحركةِ الصهيونية-الإمبراطورية؛ الأيديولوجي، والتاريخي-السوسيولوجي، مُتمازجتان في داخل الأحداث التاريخية التي حصلت منذُ «إعلان بلفور» بمعنى المنظور الأيديولوجي لتاريخ الحركةِ الصهيونية أصبحَ يعتمد أيضاً بشكلٍ أساسي على ديناميكيّات الإمبراطورية من أجل مشروع الاستيطان اليهودي في فلسطين.

ديناميكيّات الإمبراطورية من أجل مشروع الاستيطان اليهودي في فلسطين، والمشروع الاستيطاني للإمبراطورية البريطانية ومخيّلتها العرقية، ومُخطط الهيراركيات للعمل والإنتاج على مستوى العالم أصبحَ يعتمد على الأيديولوجيا القومية اليهودية، وكما يقول جابوتنسكي ليسَ لمُحاببةٍ منها أو رقّة بل لالتزام قطعتهُ أمام اليهود الأوروبيين ومن أجل مصالحها. وهُنا النقّطة التي نراها أساسية وهي التشكّلات الادارية والعسكرية في فلسطين، منذُ صكّ الانتداب، التي ستكون الخطوات لبناءِ الدولة اليهودية، وهذهِ الكلمات نراها جليّة في خطاب جابوتنسكي وهو ما أقوله عن التمازج بينَ المنظورين، وهذهِ الأحداث التاريخية هي التي ستقود إلى تأسيس الدولة اليهودية، والهيمنة والقصدُ هُنا السيادة اليهودية على جُزء كبير من فلسطين التاريخية. ومُهم الإيضاح بأن الطموحات والاستراتيجيات للإمبراطورية البريطانية ليست ثابتة في الأحداث التاريخية منذُ «إعلان بلفور» إلى تأسيس الدولة اليهودية، وبذلك التمازج بينَ المنظورين أيضاً لن يكونَ ثابتاً.

في البداية، علينا إيضاح الأحداث التاريخية التي طرأت في هذهِ الفترة، التي مهدت للهيمنةِ اليهودية. الانتداب أولا كما وضعتهُ عُصبة الأمم، كان آلية لوضعِ الأمم غير المُتقدمة والأعراق البدائية، في إطار الأمم المُتحضرة، ولذلك كان من المُهم إدارتِها لعدمِ قُدرتها على حُكم ذاتها وتحتاج الإمبراطورية أو الأمم المُتحضرة، بأن تنهض بها، وتُساعدها، وهذهِ الآليات هي ضمن النسق الاستعماري، بأن الأعراق والأمم غير الأوروبية تحتاج الآليات والادارةِ الأوروبية لكي تستطيع التحكّم في ذاتِها وتحقيق مصيرها، وفي سياق الانتداب البريطاني لفلسطين، وفرضِ قوّتها العسكرية والإدارية، على فلسطين، من أجلِ النهوض بالعرقِ اليهودي، بمعنى هي ترى وفق المُتخيل العُنصري والعرقي، بأن اليهود في فلسطين، وفي أوروبا يحتاجون لمُساعدتِها لتحقيق رغبتِهم في الاستقلال، وتُحفّز بذلك نقل اليهود لخارج الجُغرافيا الأوروبية، ومن جهةٍ أخرى الحركةِ الصهيونية تُطالب بذلك، كونِها تفهم العالم من منظورِ الإمبراطورية، وخطوةِ الانتداب لفلسطين، هي من أجل إعداد الشعب اليهودي للهجرةِ، ثم تجهيز النواحي الإدارية والاقتصادية والسياسية لبناء دولةٍ مُستقلة.

كانت سياسات الانتداب البريطاني تعمل من أجل تدعيم مشروع استيطاني استعماري آخر، كما فعلت في العديد من الجُغرافيّات في العالم، ولم يكن ذلكَ أمراً طارئاً عليها أو دعما للمُشكلة اليهودية، بل كما ذكرنا سابقاً، عملية نقلُ اليهود كانت أحد «الحلول النهائية» التي ناقشتها الدولة الألمانية في الفترة النازية، وساعدَت في تنفيذها الإمبراطورية البريطانية، والحركةِ الصهيونية. سياسات الانتداب كانت تتشكّل وفقَ الترتيباتِ والأوليات لاستيعاب المُهاجرين اليهود من أوروبا «المستوطنين»، لكي يكونوا العمود الأساس الديمغرافي للعمليّة الاستيطانية الاستعمارية، وهذهِ العملية بالإضافة إلى مُمارسة «احتلال الأرض» هي ضمن نسق الاستعمار الاستيطاني[٣٢].

كانت العملية الاستيطانية الاستعمارية في فلسطين ذات أثر سلبيّ على حياة الفلسطينيين من خلالِ سياسات الديمغرافيا والهجرة وبالتالي السيطرة على الأرض، مما جعل المستوطنات اليهودية الأوروبية تزدهرُ عدداً في فلسطين وأيضاً اقتصاديا وسياسيّا، الانتداب البريطاني كانَ لهُ دور في تحقيق بُنيةٍ اجتماعية، اقتصادية، وأيضاً سياسية[٣٣].

كانَ تشكّل هذهِ البُنية في فترة الانتداب البريطاني، ضروريّا لقيامِ الدولةِ اليهودية، عبر النظرِ بأثرٍ رجعي نجد عدّة خطواتٍ ساهمت في تشكيل بُنية الدولة اليهودية، لم تكن لتتم دونَ سياسات الإمبراطورية البريطانية: أولاً، قامت حكومة الانتداب، بتشجيعِ التنظيماتِ الاجتماعية والاقتصادية للمستوطنين اليهود، والاعتراف بها، وحرمت العرب من ذلك. فأصبحت الوكالة اليهودية «جهاز دولة»، وتطوير المُنظمة العسكرية «الهغناه» وأيضاً المُنظمة الاقتصادية العُمالية «الهستدروت»، ونظاماً للتعليم، وآخر للصحة والضمان الاجتماعي. ثانياً، شكّلت سياساتِ البريطانيين الاقتصادية عائقا حقيقيا أمام

كانت العملية الاستيطانية الاستعمارية في فلسطين ذات أثر سلبيّ على حياة الفلسطينيين من خلالِ سياسات الديمغرافيا والهجرة وبالتالي السيطرة على الأرض، مما جعل المستوطنات اليهودية الأوروبية تزدهرُ عدداً في فلسطين وأيضاً اقتصاديا وسياسيًا، الانتداب البريطاني كانَ لهُ دور في تحقيق بُنيةٍ اجتماعية، اقتصادية، وأيضاً سياسية.

نموّ الاقتصاد الزراعي للفلسطينيين، وقد عملت على تحويل الاقتصاد العربي في فلسطين، إلى اقتصاد يُصدر المواد الخام، ويستورد السلع الصناعية البريطانية، وبذلك تم اهمال السلع العربية.

تم بالمُقابل تشجيع الصناعات اليهودية، وتمكين السلع اليهودية في السوق. ومنح امتيازاتٍ حكومية للمستوطنين اليهود، حيث سيطروا على مفاصل الاقتصاد، في الإنتاج الكهربائي، وإنتاج الملح. وثالثاً، العمل على تحقيق شعارِ الحركة الصهيونية «احتلال الأرض» من خلال سنّ قوانين وفرض ضرائب تُثقل كاهل المُلاك العرب مما يُمكن الوكالة اليهودية من شراء الأراضي، ويتبعُ ذلك «احتلال العمل»؛ أي طردِ الفلاحين الفلسطينيين من الأراضي التي تملكها الوكالة اليهودية[٣٤].

كانت البُنية التي شكّلتها الإمبراطورية البريطانية في فلسطين، عبرَ سيادتها، وأجهزتها العسكرية، القانونية والسياسية، تُساهم لتجهيزِ الأسس التي قامت عليها الدولة اليهودية، في كتاب المؤرخ السوسيولوجي رونين شامير عن دور الإمبراطورية البريطانية في فلسطين، بأنها كانت «الغطاء الإمبراطوري» القانوني والسياسي، للمُمارسات المادّية الاستعمارية التي قامت بها الحركة الصهيونية، والديناميكيّات التي حكمت هذهِ العلاقة هي المصالح المُشتركة، ضمن نسق خطاب؛ التحديث، والتطوير الأوروبي. كانت المصالح المُشتركة للبريطانيين والحركةِ الصهيونية تتمّ من خلال المُصطلحات؛ التحديث والتطوير، وهذا بالتأكيد سيكون لهُ تأثير مُباشر على المُمارسات الاستيطانية.

في هذهِ اللحظة التاريخية؛ بداية الانتداب البريطاني حتى عقد الثلاثينيات في القرن العشرين، كانت العلاقات الصهيونية والإمبراطورية تحكمُها المعرفة الأوروبية لتشكيلِ الواقع الحداثي، في الاقتصاد والسياسة والقانون والقومية، مما يُبيّن لنا عمليّة التوافق بينَ الحاجات الصهيونية ومُمارساتها، من جهة، والعمليّات لتشكيل الأسس الحداثية في القانون والسياسة والاقتصاد، التي بدأت الإمبراطورية البريطانية بتشييدها في فلسطين، من جهةٍ أخرى. لذلك استطاعت الحركة الصهيونية، بناء الأسس اللازمة لدولةٍ يهودية، من مؤسسات وأجهزة ومُنظمات ومستوطنات. وهُنا نرى التمازج بينَ الحركة الصهيونية والإمبراطورية في عمليّات تشكيل الواقع الحديث[٣٥].

واستمرّ التوافق إلى أن بدأ تهديد الثورة الفلسطينية في عام ١٩٣٦، والتغيّرات في المصلحة الإمبراطورية وأولوياتها، ومُناقشة وجودها وعلاقتها بالمشروع الصهيوني في فلسطين، لظروفٍ جديدة خضعت لها الإمبراطورية البريطانية، في المستوى العالمي، وأيضاً في المستوى الإقليمي. منذُ بداية الثورة الفلسطينيّة، والعمل المُسلّح ضد المستوطنات اليهودية، والبريطانيين بشكلٍ أساسيّ، فقدت الإمبراطورية البريطانية السيطرة على غالبيّة فلسطين الانتدابية، وذلكَ كانَ لهُ أثر سلبيّ على مصالح الإمبراطورية البريطانية ليسَ فقط في فلسطين، ولكن أيضاً في المناطق العربية الأخرى. لذلكَ بدأت سياسات البريطانيين تتقلّب تجاه القضيّة في فلسطين، بين المشاريع السياسية؛ الصهيونية أو العربية، وأخذت منحى الترضية للعرب، وسببُ ذلك يعود للفوائد الاستراتيجية المُباشرة، في المناطق العربية؛ الخليج ومصر، وهذهِ التحوّلات كان لها الأثر في صياغة «الكتاب الأبيض» في عام ١٩٣٩. وفي المستوى العالمي كانت الإمبراطورية البريطانية تمرّ في سيرورة «نزع الاستعمار– decolonization» وهذهِ السيرورة تحت إدارةِ نيفيل تشامبرلين والمُحاولة الأساسية من وراء هذهِ السيرورة هي استعادة توازن المصالح بين الأصلاني(native) والمستوطن، ليسَ فقط في فلسطين والمناطق العربية وأيضاً في الهند؛ المُستعمرة الاستراتيجية للإمبراطورية. وخضعت الإمبراطورية لمطالب «حزب المؤتمر الهندي» في عدّة قضايا التي ستكون حجرُ أساس للاستقلال[٣٦].

كان أثرُ هذهِ التغيّرات والتحوّلات في الإمبراطورية البريطانية على الحركة الصهيونية سلبيًا، ومع تشكّل سياسات وفق «الكتاب الأبيض» التي تُعيق الهجرة اليهودية، والاستيطان، وشراء الأراضي؛ أي تمت إعاقةِ الأعمدةِ الرئيسية للمشروع

الاستعماري في فلسطين، كونه لم يعد ضمن مصالح الإمبراطورية البريطانية، ولكن ذلك لم يمنع تطوّر إمكانيّات وقُدرة المستوطنات اليهودية العسكرية والاقتصادية والسياسية، في التعامل مع هذه الاحتمالات التاريخية والدفاع عن مشروعها.

ما أريدُ قولهُ بأن المشروع الصهيوني أو المشروع الاستعماري في فلسطين، هو مُتعلّق في خيارات وديناميكيات الإمبراطوريّات. لذلك عند نشوء أشكال أكثرُ تطرّفا، في العُنصرية والهيراركيات العرقية، وتبلور النازية في ألمانيا لتُصبح الإمبراطورية المُهيمنة في العالم لفترة قصيرة، ليسَ موضوعنا بأن نخوض في البحث عن المُحفّزات وأحداث الحرب العالمية الثانية، ولكن عندَ بدايةِ الهيمنة النازية، بدأت مُحاولات لنقل اليهود من خارج الجُغرافيا الأوروبية بكثافة أكبر، ولكن لم ينجح، ذلك وتمّ وضع «الحل النهائي» الذي يقضي بإبادة اليهود، وكانَ ذلكَ يتناقض مع «الحل النهائي» كما فهمتهُ الإمبراطورية البريطانية والمشروع الصهيوني الذي يقضي بنقلهم من أوروبا إلى فلسطين.

وفي هذه الفترة أصبحت الإمبراطوريات؛ الألمانية وأيضاً البريطانية تُعيقان المشروع الصهيوني، وفي هذه الفترة يعود الفصل بين الهيستوغرافيا؛ الأيديولوجية، السوسيولوجي– التاريخي. لتُصبح الهيستوغرافيا الأيديولوجية تُحدد بأن فترة الانتداب لم تكن فترة استعمارية، بل هي فترة بناء الدولة القومية للشعبِ اليهودي، وبالتالي الإمبراطورية البريطانيّة أصبحت عائقا أمام هذا المشروع القومي في فلسطين وعليها إزاحتها.

إبان انتهاء الحرب العالمية الثانية بدأ الإحجام عن «الكتاب الأبيض» مع تشكّل اللجنة الأنجلو–أميركية ١٩٤٥، وصعود دور الرئيس الأميركي ترومان.[٣٧] المشروع الصهيوني الذي يطمحُ بالانفصال عن الإمبراطورية البريطانية، هو أيضاً بذلك يفصل الخطاب الاستعماري عن الخطاب الصهيوني، كونها قد استطاعت إعداد البُنية العسكرية والاقتصادية، والسياسية اللازمة للدولةِ اليهودية ولذلكَ لم تعد بحاجة للإمبراطورية البريطانية في هذه الفترة التاريخيّة، العوائق التي أعدتها الإمبراطورية البريطانية وأيضاً سياسات «الكتاب الأبيض» لم تُنفّذ بسببِ صعود الولايات المُتحدة ودورها.

الإمبراطورية الأوروبية في القارّة الأميركية كانت النموذج الاستيطاني للدولة اليهودية، بالتالي، هذه العلاقة حفّزت استعادةِ الخطاب الأيديولوجي للمشروع الصهيوني؛ الذي يعتني في المشروعيّة التاريخية والدينية للشعبِ اليهودي في العودةِ إلى أرضه، في ظلّ صعود «اللاساميّة الحديثة» وأخصّ هنا النازية خلالِ وبعد الحرب العالمية الثانية وبعدها. بذلك تم فصلُ الصهيونية عن الخطاب الاستعماري الكلاسيكي. وفي هذه الفترةِ نجدُ بأن الهجرات اليهودية الأوروبية إلى فلسطين قد فُتحت من جديد، هكذا أصبحَ المشروع الصهيوني جُزء من السياسةِ الدولية بعد الحرب العالمية الثانية، التي أصبحت تحت هيمنةِ الولايات المُتحدة، كما نرى في التقرير حول اللجنة الأنجلو–أميركية، وتحقيق المشروع الصهيوني يندرج ضمن خطاب حقوق الأمم في تقرير مصيرها[٣٨].

إجمال: تحوّلات الهيستوغرافيا الصهيونية

في ختام الدراسة، نجد بأن جذور الحركةِ الصهيونيّة وتشكّلها والتأسيس للهيمنةِ والسيادةِ والدولة، يرتبطُ بشكلٍ معرفيّ وسياسي بالإمبراطورية الأوروبية كنموذج تاريخي استعماريّ، وأخصّ الشكل البريطاني. هذه هي تاريخيّة، من خلال تشابك الأحداث التي تطوّرت بها الإمبراطوريّات الأوروبية منذُ مملكةِ قشتالة – إسبانيا وقد تخلل تطوّرها بروز حدّة الهيراركيّات في المُجتمعاتِ الأوروبية والعالم أيضاً، مما يجعل التلاصق بينَ صعودِها وصعودِ أشكال حديثة من العُنصريّات، نمت خلال غزو الأميركيتيّن، وتصنيف الإنسان، عبر هيراركيّات عرقية ودينية، وتبع ذلك هيراركيّات جندرية وطبقية، في شكلِها الحديث العالمي. وفي هذا السياق قد نتجَ تصنيفٍ عرقي للجماعةِ اليهودية، وضمن مخطط الهيراركيات المُرتبط بشكلٍ أساسي في مصالح الإمبراطوريّات ونموّها واستمراريّتها.

وأشير لهذهِ الفترةِ التاريخيّة لكي نستطيع رصد بدايات المُشكلةِ اليهوديّة وأيضاً رصد الهيستوغرافيا وتحوّلاتها، حولَ الحركةِ الصهيونية العالمية التي ظهرت في شكلِها التنظيمي منذُ القرن التاسع عشر، ونقاشِ أسئلة تقع في صُلب تطوّر الصهيونية وعلاقتِها بالإمبراطوريّات، كيف نتجت، وما هي، ولماذا تطورّت لتُصبح مُهيمنة؟

تقعُ التحوّلات التي نجدُها في الهيستوغرافيا، ضمن منظورين؛ الأول، الأيديولوجي، والمنظور الثاني التاريخي– السوسيولوجي. أوّد هُنا التوضيح بأن الأيديولوجي يُحدد السيرورة التاريخيّة في الفترات والأحداث منذُ القرن التاسع عشر التي أدت لتبلور الحركة الصهيونية في مراحلها الثلاث وما سبق هذهِ المرحلة كسيرورة أيديولوجية تحتّم «عودة اليهود لوطنهم» وبناء دولتهم القومية. وبالمُقابل التاريخي– السوسيولوجي، يُقارب سيرورةِ الأحداث التاريخية من خلالِ

كونِها عمليّة اجتماعية، هدم وبناء علاقات، ومؤسسات في المُجتمع والدولة منذُ القرون الاستعماريّة الأولى. لذلك تحديدنا والفصل النظريّ، بين المنظورين من أجل فهمِ الكتابةِ التأريخيّة للصهيونيّة والإمبراطورية، ومُحاولة استكشاف هذا الفصل وتشكيلهِ من جديد، بينَ كتابةٍ تنظرُ للأيديولوجيا والفكرة على أنها هي جوهرُ الحدث التاريخي، وبين المنظور الذي يُركز على العملية والسيرورةِ الاجتماعية والتحوّلات في العلاقات وبروز الهيراركيات في جميع المجالات.

وسأحاول ترتيب التفسيرات لكلّ من المراحل الثلاث التي مرّت فيها الصهيونية وفق دراستي، عبر المنظورين، وبذلك نستطيع فعلاً رصد التحوّلات في الكتابةِ والهيستوغرافيا التاريخيّة:

المرحلة التاريخية	المنظور الأيديولوجي	المنظور السوسيولوجي-التاريخي
الجذور: التشابك الأول – الصهيونية والإمبراطورية	العداء لليهود منذُ القرن التاسع عشر، عبر بروز العداء للساميّة الحديثة، من هُنا بدأت سيرورة إنتاج فكر سياسيّ «الصهيونية» يدعو اليهود لإقامة وطنهم على أساسِ التجربة الثقافية والدينية، والدور المُحدد للإمبراطورية هو فقط أداة.	اليهود هم أدنى من باقي الشعوب الأوروبية وأصبحوا فائضا بشريا على الإمبراطورية كباقي الأقليّات الدينية، والتحكّم في مصيرهم سيكون ضمن مُخطط الهيراركيات على مستوى العالم، ومشروع إخراجهم من أوروبا هو أحد الحلول المطروحة، كمشروع استيطاني.
التشكّل: أثرُ الإمبراطورية في الحركة الصهيونية	الإمبراطورية تُصبح أداة لتحقيق الغاية الصهيونية؛ تشكيل وتأسيس وطن ودولة قومية للشعبِ اليهودي. وبذلك المنظور الأيديولوجي يفصل المُشكلة اليهودية عن الإمبراطورية، وتكون هي جُزءا من الحلّ.	أثرُ الإمبراطورية هو دائم ومُتجذّر في تطوّر المُشكلةِ اليهودية وأيضاً الصهيونية. المؤسسون والأدبيات الصهيونية يندرجون ضمن النسق المعرفي للإمبراطورية، لذلك النظرُ إلى المُشكلة اليهودية سيكون من خلالِ الإمبراطورية.
الهيمنة: نحو تأسيس الدولة اليهودية	لم يكن المنظور الأيديولوجي في هذهِ المرحلة منذُ إعلان وعد بلفور، ذا أهميّة، لأن الحركة الصهيونية أصبحت ترى نفسها كحركةٍ استيطانيّة تحتاج دعمِ الإمبراطورية، ضمن تلبية حاجات مُخططِ الهيراركيات على مستوى العالم.	ساهمت الإمبراطورية البريطانية في فترة الانتداب في دعم وتثبيت المشروع الصهيوني بعدّة مجالات؛ السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وإعدادهِ لبناء الدولةِ اليهودية. جرت هذهِ العمليةَ من خلال التوافق المعرفي حول قضايا إنشاء الدولة الحديثة.

الهوامش

١ ف، بروديل. ديناميكيّة الرأسمالية. ترجمة شفيق مُحسن، (بيروت: دار الكتاب الجديد المُتحدة، ٢٠٠٨). ص٦٠

2 R, Grosfoguel. "The Structure of Knowledge in Westernized Universities: Epistemic Racism/Sexism and the Four Genocides/Epistemicides of the Long 16th Century". **Journal of the Sociology of Self-Knowledge, (2013), pp. 73-90**

3 R, Grosfoguel, pp. 73-90

٤ ف، بروديل. ديناميكيّة الرأسمالية. .ص٥٨–٦٢

٥ بروديل. ديناميكيّة الرأسمالية.. ص٦٩–٧٠؛ وأيضاً يذكر بروديل الكتاب (the Modern World-System) للمؤلف إيمانويل والرستين

6 R, Grosfoguel, pp. 73-90

٧ عبد الوهاب المسيري. الجماعات الوظيفية اليهودية. (القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢)، ص١١٥

8 R, Grosfoguel, pp. 73-90

9 R, Grosfoguel, pp. 73-90

10 R, Grosfoguel, pp. 73-90

١١ ث، هرتسل. الدولة اليهودية. ١٨٩٦. ترجمة محمد فاضل، (القاهرة: مكتبة الشروق الدولية)، ٢٠٠٧

١٢ إ، ليفي. يقظة العالم اليهودي. الطبعة الأولى، (القاهرة، ١٩٣٤)، ص١٠١–١٠٢

13 D, BELL. "Hannah Arendt, the Jews, and the Labor of Superfluity". **PMLA**, Volume 127, Number 4, October 2012, pp. 800–808 (9)

١٤ إ، ليفي. يقظة العالم... ص١٠١–١٠٢ & F, Kobler. "Napoleon and the restoration of the Jews to Palestine". **new Judaea**,(17 December 1940)

١٥ إ، ليفي. يقظة العالم... ص١٣٧

١٦ ع، اسماعيل وا، خوري. السياسة الدولية في الشرق العربي. جزء ٣. (بيروت: دار النشر للسياسة والتاريخ، ١٩٦١)، ص٧٣

١٧ انظر: Ch, Churchill. **Mount Lebanon a ten years residence**. London (1853). 3 vols

18 A, Green. "Montefiore and the making of the"Jewish International". **Modern Jewish Studies**, (2008), pp. 287–307

19 A, Green, pp. 287-307

20 Yuri Ram. "Zionist Historiography and the Invention of Modern Jewish Nationhood: The Case of Ben Zion Dinur". **History and Memory** 7 ,1 (1995), p91

21 R, Gordon; R, Grosfoguel; E, Mielants. "Global Anti-Semitism in World-Historical Perspective: An Introduction". **Journal of the Sociology of Self-Knowledge**. (2009), Article 2

22 H, Arendt. "The Jewish State: Fifty Years After". **Commentary**, May 1946

23 H. Arendt. May 1946

24 A, Hourani. **Great Britain and the Arab world**. (London: fosh & cross LTD), 1945

25 N, Sokolow, **History of Zionism**, vol. 1, (New York Etc. Longmans, 1919). p.231

26 N, Sokolow, 1919). p.231

27 A, Hourani. 1945

28 C, Weizmann. **Trial and Error: The Autobiography of Chaim Weizmann**, (New York: Harper & Brothers Publishers, 1949), p. 177-178

29 C, Weizmann, p. 186

٣٠ الأمم المتحدة،«منشأ القضية الفلسطينية وتطورها، الجزء الأول: ١٩١٧–١٩٤٧» (نيويورك: الأمم المتحدة، ١٩٧٨) ص١٠٣–١١٠

٣١ ملف وثائق فلسطين مجموعة وثائق وأوراق خاصة بالقضية الفلسطينية من عام ٦٣٧ إلى عام ١٩٤٩ وزارة الإرشاد القومي، الهيئة العامة للاستعلامات الجزء الأول. ص٤١١

32 Wolfe, P. 2012. "Purchase by Other Means: The Palestine Nakba and Zionism's Conquest of Economics". **Settler Colonial Studies**, vol 2, issue 1,(2012), pp.133–171

٣٣ انظر إلى: Metzer, J. **The divided economy of mandatory Palestine**. (Cambridge: Cambridge (university. 1998

٣٤ فضل النقيب & مفيد قسوم، "الاقتصاد السياسي لصناعة التقنية العالية في اسرائيل"، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية. (٢٠١٥)، ص٥٦–٥٧

35 Ronen Shamir, **The Colonies of Law: Colonialism, Zionism and Law in Early Mandate Palestine**. (Cambridge Studies in Law and Society.) New York: Cambridge University Press. 2000. p216

36 R, W, Zweig. "'The Palestine Problem in the context of colonial policy on the eve of the second world war", in M, J, Cohen & M, Kolinsky. **Britain and the Middle East in the 1930s**. (London: The Macmillan press. 1992), pp, 206-215

37 Lauren, E, A. **Disorderly Decolonization: The White Paper of 1939 and the End of British Rule in Palestine**. (Unpublished doctoral dissertation). (2008), p174

38 Lauren, E, A, pp. 173-216